

المسألة اللغوية في القنوات الفضائية العربية الجزائر أنموذجا

الأستاذ احسن خشة
جامعة 08 ماي 45 قلمة

الملخص :

تعرض هذه المقالة إلى إشكالية الهوية التي تلازم الفضائيات العربية بشكل عام في عدة مجالات ، لعل أبرزها هو البعد اللغوي الذي تعتريه الكثير من الإصابات التي أفقدته ملامح التميز في الفضاء الإعلامي العالمي ، ولعل استشرء العامية ، والازدواجية اللغوية بشكل مكثف لم يستثنى منه إلا النزر القليل من البرامج ، والتي لم تعد في مأمن من انتقال العدوى إليها في مستقبل الأيام ، يدعونا إلى ضرورة تحديد معالم المشكلة وارتباطاتها بالسياقات التاريخية والاجتماعية التي تتمظهر إعلاميا .

وقد آثرنا الاقتصار على الأنموذج الإعلامي الفضائي الجزائري باعتباره عينة ممثلة لما يعتور المشهد الإعلامي العربي عموما ، ولكونه يتميز بخصوصية لها وشائج وثيقة الصلة بالسياق التاريخي الجزائري الأمر الذي يمكننا من تحديد خلفيات الإشكال الهوياتي في بعده الإعلامي .

Abstract : This paper tries to reveal the problematic of identity in Arabic channel's in general from many aspects ,particularly the language dimension which knew many disadvantages that prevent it to be peculiar in worldwide media ,the use of colloquial language and bilingualism in different programs lead us to identify the issue aspects in relation within its historical and social contexture .

We preferred to focus on Algerian media in particular, that we consider a sample of what's happening in Arabic media ,and especially because it is

characterized by the tight relationship with colonial period of Algeria which enable us to precise the background of identity in media.

مقدمة

تقوم هذه المقالة على فكرة أساسية مؤداها أن الإعلام الفضائي العربي، على الرغم من تعدد قنواته وتنوعها، إلا أننا نلاحظ أن مضامينها الإعلامية المستوردة منها والمحلية لم تضبط موجاتها على ما يخدم القيم الحضارية للمجتمعات العربية والإسلامية، كذلك نجدها تفتقد إلى البوصلة الحضارية التي تحدد مسارها وتدعم هويتها وكيونيتها في ظل العولمة الثقافية التي تقوم على نظرة اقصائية لكل الخصوصيات الثقافية التي لا تخدم الأجناس الثقافية والاقتصادية والسياسية العالمية .

إن موضوع الهوية بشكل عام، لا يعد قضية عارضة ولا هامشية، بل هو يحتل مكانة مركزية في دائرة الفعل الثقافي، فلقد عاشت الساحة العربية والإسلامية ردحا من الزمن ولا زالت تتجاذبها أطروحات متعددة تصب في مجملها حول الموقف من مسألة الهوية، وهو الموقف الذي كان ولا يزال مقرا لمصير الكثير من التيارات الفكرية التي تطرح نفسها كبدايل لتغيير الواقع العربي والإسلامي .

ونظرا لتعدد أبعاد الهوية، فستقتصر معالجتنا لهذا الموضوع على بعد واحد للهوية يرتكز على المسألة اللغوية، وهو موضوع على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لباقي مكونات الهوية الإعلامية، خاصة في السياق الجزائري نظرا لاعتبارات مختلفة تاريخية، سياسية، اجتماعية وثقافية .

نحاول في هذا المقال استعراض مشكلة الهوية الإعلامية في بعدها اللغوي مثلما تبرز من خلال الفضائيات الجزائرية، وذلك اعتمادا على السياق التاريخي للموضوع، ونطرح بعد ذلك وجهة نظرنا بخصوص الخلفيات التي تكمن وراء هذا الإشكال الهوياتي .

أولا : حول إشكالية الهوية

تجدر الإشارة في البداية إلى أن لفظ "الهوية" لا ينصرف في الذهن إلى معنى واضح ومحدد، بل تتحكم اعتبارات متعددة في دلالة هذا اللفظ على معناه، إضافة إلى تعذر تجريد هذا المفهوم من مضامينه الإيديولوجية التي تتدخل بطريقة أو بأخرى في تحديد أبعاده.

وفي اعتقادنا أنه لا يمكن إغفال مجموعة من الاعتبارات في ضبط هذا المفهوم

الاعتبار الأول: أنه ينبغي التفريق بين الهوية كتصور وبين الهوية كتطبيق سلوكي، فكثيرا ما يصرح الأفراد بأن هويتهم تتناغم إلى حد بعيد مع كل ما يتوافق وثوابت الأمة من لغة وتاريخ وقيم وعادات وما إلى ذلك، ولكن إذا تأملنا في سلوكياتهم نجدها تتناقض مع كل ما يمت بصلة إلى الأنا القيمي والحضاري للأمة.

الاعتبار الثاني: أن مفهوم الهوية تتداخل فيه الأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية وغيرها، بحيث أن المصطلح الأصوب في هذا السياق هو الحديث عن هويات بدل هوية واحدة، فهناك الهوية القومية، وهناك الهوية الدينية، وهناك الهوية الاجتماعية وهكذا.

وفي غالب الأحيان نجد هناك تداخلا بين هذه الهويات بحيث تمتزج أحيانا مع بعضها البعض لتشكل هوية واحدة، وفي أحيان أخرى تستعمل كأدوات للصراعات المعلنة والخفية بين الأطياف الاجتماعية والسياسية المختلفة، فنجد الهوية الدينية في مقابل الهوية القومية، والهوية الاجتماعية في مقابل الهوية الوطنية وهكذا.

الاعتبار الثالث: أن الهوية مجال قابل للتوسع والانكماش بحسب عدد ونوعية الأفراد الداخلين فيه، ويتأسس على ذلك طبيعة التفاعل، وقد عبر عن ذلك المفكر عابد الجابري بقوله "الهوية الثقافية مستويات ثلاثة: فردية، وجمعية، ووطنية قومية. والعلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساسا بنوع "الآخر" الذي تواجهه¹.

ويشرح المفكر عابد الجابري هذه الفكرة بقوله "إن العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة تتحدد أساسا بنوع "الآخر"، بموقعه وطموحاته: فإن كان داخليا، ويقع في دائرة الجماعة، فالهوية الفردية هي التي تفرض نفسها كـ"أنا"، وإن كان يقع في دائرة الأمة فالهوية الجمعية (القبلية،

¹ www.mukalla-online.com/modules/news/article.php?storyid=775

الطائفية، الحزبية الخ) هي التي تحل محل "الأنا" الفردي. أما إن كان "الآخر" خارجيا، أي يقع خارج الأمة (والدولة والوطن) فإن الهوية الوطنية -أو القومية- هي التي تملأ مجال "الأنا".¹

إن "الهوية" تعتبر مفهوما إشكاليا ، لان لها أبعاد متداخلة فيما بينها تتعلق بالمرجعية التاريخية و الإيديولوجية والسياسية والحضارية واللغوية والدينية، وهذه المتغيرات تجعلنا بإزاء مفهوم يحتمل دلالات مختلفة ومتغيرة من مرحلة زمنية إلى أخرى ، وخاصة في سياق العولمة المعاصرة التي ألقت بظلالها الوارفة على معاني ودلالات الهوية، وبالتالي فان تعريف الهوية يتباين من باحث لآخر، ولكن بشكل عام تتوافق على فكرة أساسية مؤداها " أن الهوية ليست أمرا مقررًا ، بل هي توجد وتنشأ² ، وتشكل من خلال جملة من القيم والأبعاد القابلة للتحويل أو التغيير من مرحلة زمنية إلى أخرى ، وبحسب درجة الصعود الحضاري أو السقوط الحضاري لأمة من الأمم ، وهنا يمكن الحديث عن "دورة الهوية " والتي يمكن وصفها بأنها تمر بثلاث مراحل أساسية مرحلة التشكل وهنا تتموقع في المجال الثقافي والاجتماعي والإنساني ، ومرحلة الازدهار ، ثم مرحلة التراجع والانكماش .

وهذه المراحل تختلف حسب المعايير التالية المتكاملة فيما بينها :

1-المعيار الزمني : فلكل فترة زمنية خصوصياتها بحيث أن إحساس الفرد بالأنا الثقافي والحضاري يختلف من مرحلة زمنية إلى أخرى .

2-درجة ارتباط الفرد والجماعة بالقيم الثقافية والحضارية ، فكلما زاد تمسك الفرد بها كلما تعددت المؤشرات التي تؤكد على تميز الهوية الثقافية والحضارية .

3-مكانة المجتمع أو الدولة التي ينتمي إليها الفرد في سلم التطور الحضاري ، فإذا كانت الدولة مزدهرة حضاريا فان ذلك ينعكس على إحساس الفرد بانتمائه إليها ، أما إذا كانت الدولة في مرحلة السقوط أو الركود الحضاري فان الفرد يعيش نوعا من الارتباك في الهوية بحيث يعتقد أفكارا معينة ويناقضها بسلوكيات مخالفة لها .

¹ www.almaghrebiya.com/p=5917

² كريس باركر ، التلفزيون والعولمة والهويات الثقافية ، ترجمة علا أحمد إصلاح ، القاهرة ، مجموعة النيل العربية ، 2006 ، ص 18

وتلعب وسائل الإعلام بشكل عام والفضائيات على وجه الخصوص دورا لا يستهان به في التعبير عن الهوية المجتمعية من ناحية وتفكيك وإعادة بناء الهويات الثقافية سواء على المستوى الفردي أو الجماعي من ناحية أخرى ، ويأتي في مقدمة هذه الوسائل ، التلفزيون الذي " أصبح موردا رئيسا لبناء مشروعات الهوية"¹

تشكل وسائل الإعلام المختلفة أوعية لتعزيز الهوية بكل أبعادها ، إذا ما ضببطت موجات برامجها على كل ما يمت لقيمها وحضارتها بصلة ، كما يمكن أن تشكل هذه الوسائل معاول هدم وتفكيك لكل ما يرمز للهوية المفترضة ، وهنا تفقد المقولات الأصلية التي تكون الهوية هويتها وقيمتها ، وتتماهي في الآخر المختلف عنا ثقافيا وحضاريا ، وهنا يكون الفرد على قدر من الجاهزية والقابلية لتبني أفكار الآخر ، وسلوكياته مهما بلغت حدة تناقضها مع الهوية الأصلية.

وتجدر الإشارة إلى أن الهوية في بعدها الإعلامي يمكن النظر إليها من خلال عناصرها المختلفة ، والتي يمكن تجزئتها إلى محورين أساسيين :

أولهما : المكونات الثقافية : وهي المكونات الأساسية التي تجسدها السياسة الإعلامية التي تعتمدها القناة والتي تضم جملة القيم والمبادئ والمعايير التي تتحدد بها الممارسة الإعلامية ، إضافة إلى اللغة وكذا الاعتبارات الأخلاقية التي ينضبط بها العاملون بالمؤسسة الإعلامية .

ثانيهما : المكونات التقنية، وهي مكونات ثانوية مثل "الشارة الإعلامية" أو اللوغو ، إضافة إلى الألوان المستخدمة ، والموسيقى ، والجينيريك وغيرها

وتندرج اللغة الإعلامية ضمن الفئة الأولى ، وهي التي تجعل القناة كائنا إعلاميا متميزا بين مختلف الكائنات الإعلامية الأخرى . وسنركز في هذا السياق على الهوية في بعدها اللغوي ، واقتصرنا على الحالة الجزائرية بالرغم من أن واقع اللغة العربية إعلاميا كمعبر عن الهوية ينسحب على السياق العربي كله من المحيط إلى الخليج ، ومهما حاولنا إضفاء نبرة تفائلية

¹ المرجع السابق ، ص 18

حول ملابسات هذا الواقع ، إلا أن نقاطا سوداء تظل عالقة في الأذهان ، وتنذر بمساوئ أكبر في مقرب الأزمان ، لذلك فإن إجراء وقفات للمراجعة وتشخيص الأوضاع وفقا لمعطيات ميدانية ، يمكنها الإسهام في إبقاء شعلة تصحيح المسار متقدة مهما تقلبت بنا ظروف الدهر، ومهما علت أصوات المثبطين والمرحفين في أصقاع البلاد العربية والإسلامية .

ثانيا : اللغة العربية في السياق التاريخي الجزائري

يقول البشير الإبراهيمي: "فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لاتريم ولاتبرج ، مادام الإسلام مقيما لا يتزحزح ، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس ، وتنساع في الألسنة واللهوات ، وتنساب بين الشفاه والأفواه . يزيد لها طيبا وعذوبة أن القرآن بها يتلى ، وأن الصلوات بها تبدأ وتختتم -فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها ، وخالطت الحواس والشواعر ، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا ، فأصبحت لغة دين ودنيا معا ، وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته ، وعرف البربر على طريقها ما لم يكونوا يعرفون ، وسعت إليها حكمة يونان ، تستجديها البيان ، وتستعديها على الزمان ، فأجدت وأعدت . وطار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرومان ، وزاحمت البربرية على ألسنة البربر فغلبت وبزت ، وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية ، كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر ، واقتناع لا يد فيه للقهر ، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار . وكذب وفجر كل من يسمي الفتح الإسلامي استعمارا . وإنما هو راحة من الهم الناصب ، ورحمة من العذاب الواصب ، وإنصاف للبربر من الجور الروماني البغيض.¹

لقد عرفت اللغة العربية منذ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا وقبل الاحتلال الفرنسي الغاشم فترة ازدهار وثوراء ورفاه ، فانتشرت المدارس والجامعات في كل الأرجاء شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، وأصبحت اللغة العربية رافدا من الروافد الحضارية التي تشكل معالم الشخصية الوطنية الجزائرية .

¹ محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، الجزائر ، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع ، د ت ، ص 221

ثم جاء الاحتلال الفرنسي الاستيطاني الذي احتل ربوع البلاد فعاث فيها فسادا بطريقة غير مسبوقة ولا ملحوقة ، لفترة امتدت قرنا ونيفا ، فمارس سياسة الإبادة والتنكيل والتجهيل ، فسالت دماء ودماء ، تصعب على العد والإحصاء .

لم يدخر الاحتلال الفرنسي جهدا في استئصال اللغة العربية ، وارتكب كل الموبقات لإزالتها ، وقد وصل به الأمر إلى حد اتخاذ مرسوم قرار اعتبر فيه العربية في الجزائر لغة أجنبية ، لا يقبل تعلمها وتعليمها إلا بتسريح خاص من حكومة فرنسا .

ولما آذن زمن الاحتلال بالرحيل عن الجزائر، باشرت جبهة التحرير الجزائرية المفاوضات حول استقلال الوطن ، " أبرمت اتفاقيات "ايفيان " سنة 1962 باللغة الفرنسية فقط ، ويعتبر ذلك أول صفة للغة العربية في مستقبل جزائر الاستقلال ، بينما وقعت اتفاقية "جنيف" سنة 1954 التي أنهت الاستعمار الفرنسي للفيتم باللغتين (الفيتنامية-الفرنسية) ¹

وبعد استقلال الجزائر في 05 يوليو 1962 عن سلطة الاحتلال الفرنسي الظالم ، بدأت الجزائر تستجمع قواها شيئا فشيئا ، في ظل محدودية الإمكانيات ، وتفاقم الأزمات المختلفة في جميع المجالات ، وفي ظل النسبة المرتفعة من الأمية والفقر والتهديدات الخارجية وغيرها .

بدأت اللغة العربية تزحف تدريجيا لتمدق في التعليم والمدرسة الجزائرية ، وحظيت بمكانة هامة تدعمت شيئا فشيئا ، و"لكن المشكلة كانت في البيئة غير المعربة ، من معاملات إدارية ومواد سينمائية وتلفزيونية ، بل وإذاعات أجنبية في متناول حركة أصبع واحد ، أصبحت كلها تؤدي عند التلميذ وعند الطالب بل وعند المواطن بشكل عام ، إلى حالة من انفصام الشخصية ، تماما كما يحدث عند من يتعلم قيادة السيارة بالأسلوب الغربي ، أي على يمين الطريق ، ثم يخرج إلى الشارع ليضطر ، لأنه في الباكستان أو الهند لقيادة السيارة على الجانب الأيسر للطريق ، أي بالأسلوب البريطاني" ²

¹ www.csla.dz/mjls/index.php?option=com_remository&Itemid=55&func=fileinfo&id=5

² محي الدين عيمور ، الجزائر الحلم والكابوس ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، 2003 ، ص 61

وزاد الأمر سوءا ، فيما يتعلق بتعريب المحيط آنذاك ، محدودية الإنتاج التلفزيوني باللغة العربية ، وعدم وجود نظام عربي موحد لدبلجة الأفلام الأجنبية ، نتيجة لعدم وجود إستراتيجية فكرية عربية واحدة على مستوى الوطن العربي كله ، حيث ترك الأمر للخواص أو للتقنيين¹

شكلت الاعتبارات السابقة وغيرها محيطة غير ملائم لازدهار اللغة العربية، فنبطت عملية التعريب التي قننتها الدولة الجزائرية وشرعت في ترجمتها على أرض الواقع ، لكن المسيرة توقفت ، وزادها سوءا استشرء العامية في مختلف المجالات ، حتى أضحت بديلا عن الفصحى في التواصل ، والغريب في الأمر أن الذين يتساهلون في تعميم العامية ، لا يخطئون في التفصح باللغات الأجنبية .

وفي نفس السياق هناك مسألة أخرى على درجة كبيرة من الأهمية والمتمثلة في "القضية الأمازيغية" ، وهي التي أضافت للواقع اللغوي في الجزائر انشغالا آخر يقض مضاجع المثقفين والسياسيين نظرا لتعدد المقاربات التي تعرضت لطرائق معالجة الموضوع ، الأمر الذي جعلها تتميز بنوع من الحساسية ، على اعتبار أن غالبية سكان الشمال الإفريقي هم من الأمازيغ أو البربر، الذين تعربوا بعد الفتح الإسلامي لهذه المناطق ، ولكن الاحتلال الفرنسي لعب على وتر الهوية الأمازيغية في فترة الاحتلال ، مما أدى بوجود أصوات تنادي بضرورة إحياء البعد الأمازيغي للمجتمع ، وقد تطور الأمر إلى جعل البعد الأمازيغي عنصرا من عناصر الهوية الوطنية إلى جانب العربية والإسلام ، ولا تزال أصوات أخرى تدعو إلى ترقية الأمازيغية من كونها لغة وطنية إلى تكريسها لغة رسمية ، وهذه مسألة تضاف إلى الازدواجية اللغوية المكرسة في دوايب الحكم والإدارة بين العربية والفرنسية ، مما يرشح الأمر إلى تداعيات أخرى لا نعرف مداها ولا يمكن التنبؤ بمالاتها .

ثالثا: إشكالية الهوية الإعلامية في بعدها اللغوي

¹ المرجع السابق ، ص 62

لعل دائرة التركيز الأولى التي تشغل بال المثقفين والإعلاميين بشكل عام تتمحور حول سؤال رئيسي مؤداه : هل المطلوب من الإعلام الجزائري أن يكون عاكسا أميناً لما يعتمل بواقع الحال هوياتياً أم المفترض أن يقدم صورة مجملة تظهر مكونات الهوية في بوتقة واحدة تنجلي فيها القواسم المشتركة ، وتتوارى فيها عوامل الاختلاف وجيوب التناقض .

هل المطلوب أن يكرس الإعلام الفضائي الجزائري فكرة العلامة "ابن باديس" حينما قال "نحن أمازيغ عربنا الإسلام" ، وهنا تظهر الأولويات مرتبة وفقاً للمرجعية الروحية الإسلامية دينياً ، ولساناً معرباً لغوياً ، وجذور أمازيغية تاريخياً .

أم أن المفترض أن يترك العنان لهذه الأبعاد تعمل بشكل مستقل ، لتشكيل كل منها عزفاً منفرداً ، وبالتالي تؤدي بذلك أغراضاً تفكيكية بدل الأغراض التجميعية .

وهنا نشير ابتداءً إلى أن "الأمازيغية" عندنا ليست نسقاً لغوياً واحداً ، بل هي لهجات متعددة ، بحيث أن لكل منطقة لهجة أمازيغية خاصة بها ، فهناك "القبائلية ، الشاوية ، المزابية ، الترقيّة... الخ ، وكل واحدة منها مختلفة عن الأخرى

فهل يسوغ أن يعكس الإعلام الفضائي الجزائري هذه التعددية "اللغوية" مثلما هي موجودة في الواقع ، وهل بإمكان الإعلام الرسمي فعل ذلك ؟ ، وكيف يمكن تحقيق التوازن في تمثيل كل لهجة ؟ خاصة إذا علمنا أن قطاعات واسعة من المجتمع لا تفهم هذه اللهجات ، فمجرد بث برنامج بلهجة معينة يعني حرمان المواطنين الآخرين من إمكانية المتابعة والفهم.

أم أن المفترض هو فتح المجال الإعلامي الفضائي للقطاع الخاص ، وترك هذه القضايا لاعتبارات السوق تتحكم فيها وفقاً لقانون العرض والطلب ، وتلعب فيها السلطة دور المراقبة والضبط لا غير .

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن تعددية الخيارات أمام المشاهد في ظل هذا التنوع الهائل للفضائيات ، لعبت وتلعب دوراً سلبياً في ما يتعلق بموضوع الهوية لأنها أصبحت تعددية تخدم خيار التجزئة والتفكيك بدل خيار الوحدة والتجميع ، فأصبح الإحساس بالانتماء إلى مجتمع أو دولة موضوعاً جدلياً بعد أن كان أمراً محسوماً ، وهنا لا بد من التفريق بين الهوية كممارسة

فعلية والهوية كتصريح أو تصور ، فماذا يمكن أن تؤول إليها الأمور إذا أضفنا إلى ذلك هذا التشنت الإعلامي بين فيض هائل من القنوات الفضائية ، تشنتا آخر لغويا ضمن القناة الواحدة في البلد الواحد ؟

بهذه الإشكالية لا زلت أتصور بان من وظائف الإعلام أن يعكس ما تتميز به الخريطة اللغوية الوطنية ، أن يكون مرآة عاكسة لما يعمل داخل المجتمع من ثقافات فرعية ، أن يعكس بالصوت والصورة حقيقة ما يجري دون رتوشات أو مواد تجميل . لأن جو الحرية هو الذي يكفل معالجة الوضعية ، وحتى لا يستشعر أي طرف أنه يعيش حالة من الاغتراب الاجتماعي والمكرسة إعلاميا ، فيصبح فعله سلبيا ، واتجاهاته لا تخدم الأجندة الوطنية ، لأنه في كثير من الأحيان تستخدم هذه الورقة كمنفذ للتدخل الأجنبي باسم حماية حقوق الأقليات ، لذلك ينبغي عرض كل ما هو موجود في الواقع الاجتماعي من ثقافات فرعية ولغوية ، بشرط أن تكون مصاحبة بترجمة إلى اللغة العربية الفصحى ، وهي التي تعتبر بمثابة الوعاء يهيمن على كل المكونات الفرعية اللغوية الأخرى ، وأن يكون الحضور الإعلامي بقدر التمثيل الاجتماعي .

رابعا: اللغة الإعلامية في الفضائيات الجزائرية

تعتبر اللغة من الناحية السيكلولوجية عن ذاتية الفرد وعن كيان الأمة ، ومن الناحية الاجتماعية أداة للتواصل والتقارب والتجانس الاجتماعي ، ومن الناحية الثقافية جسرا يعبر من خلاله اللاحقون إلى اجتهادات السابقين ، ومن الناحية الإعلامية تمثل مرآة عاكسة لصورة المجتمع وملامح شخصيته الثقافية بين الأمم ، ومن الناحية السياسية تمثل عنوان سيادتها واستقلالها ، ومن الناحية الحضارية رصيد الأمة من المعارف والأفكار والقيم .

"إن اللغة في الوجود أداة مطلقة، وهي في السياسة قيمة مقيدة، ولكنها في الإعلام وظيفة متحركة"¹ وعندما تقوم وسائل الإعلام المسموعة والمنظورة بتقديم برامج للمستمعين والمشاهدين بلغة عربية فصيحة فإنها بذلك تنشر لغة القران الكريم وتنمي محصولها عند

¹ عبد السلام المسدي ، السياسة وسلطة اللغة ، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية ، 2007 ، ص 9

المشاهدين ، مما يشجعهم على الاستماع الجيد ، والتقليد اللغوي الفعال ، واكتساب مفردات لغوية جديدة ، ونمو ثرواتهم اللغوية ، ويحثهم على الجرأة والطلاقة في الكلام ، وفي ذلك نشر ودعم للعربية ، وتسهيل لعملية قراءة وحفظ واستيعاب القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وعلوم الدين المختلفة¹

ولكن من خلال استقراءنا للواقع العربي عموما ، والجزائري منه على وجه الخصوص نجد البون شاسع بين الواقع والمأمول ، بحيث نجد أن لغتنا العربية تعاني من أزمة لا تخطئها العين ، إن على صعيد الفكر ، وإن على صعيد الممارسة ، ويكاد ينسحب هذا التقييم المبدئي على جميع المجالات ، وتعتبر القنوات الفضائيات من الفضاءات الحساسة في المجتمع ، وتأثيراتها ليست بخافية على احد ، فهي من الأهمية ما يجعلنا ندق ناقوس الخطر قبل فوات الأوان ، لأن مختلف تفاعلات المجتمع سياسيا ، واقتصاديا ، وثقافيا يتم عرضها إعلاميا .

وتجدر الإشارة إلى أن إجراء عملية إحصائية توضح الحجم الزمني الذي توظف فيه العامية في الفضائيات الجزائرية عامة ، أمر بالغ الصعوبة ، ولا يستطيع جهد أي فردي مهما علا كعبه من الناحية المعرفية والمنهجية أن يقوم بهذا الأمر ، لذلك سأكتفي بجملة من الملاحظات التي تسلط بعض الضوء على مظاهر استخدام العامية بديلا عن اللغة الفصحى في الفضائيات الجزائرية .

تتمظهر إشكالية الهوية في بعدها اللغوي في الإعلام الفضائي الجزائري في العناصر التالية :

1-تبث بعض البرامج الأجنبية بلغتها الأصلية دون الاعتماد على الترجمة ، وتقريبا تكون اللغة الأجنبية التي لها صلاحية الظهور بلا حسيب ولا رقيب هي اللغة الفرنسية ، ولم يقتصر الأمر على الأفلام والبرامج الوثائقية ، بل حتى تصريحات المسؤولين المحليين والأجانب تبث بدون ترجمة إلى المشاهدين ، وكأن الأمر يتعلق بلغة وطنية في متناول كل الفئات الاجتماعية

2-استخدام العامية أو اللهجات المحلية في البرامج المختلفة ، وربما الاستثناء الوحيد الذي لم تنتقل إليه العدوى هو نشرات الأخبار .

¹ محي الدين خير الله العوير ، أثر الإعلام المعاصر ، دمشق ، دار النهضة ، 2007 ، ص 163

3- البرامج المستوردة والتي يتم دبلجتها باللغة العربية الفصحى أو باللهجات المحلية والمشرقية منها على وجه الخصوص .

فبالنسبة للإعلام المرئي ، نجد أن زحف العامية طال الإنتاج المحلي بمختلف أشكاله ، وربما الاستثناء الوحيد هو نشرات الأخبار وبعض الحصص الحوارية التي تتخللها العامية في الكثير من الأحيان ، مع التفاوت الملاحظ من برنامج إلى آخر .

ولم تسلم حتى البرامج الدينية ، والتي أصبحت تقدم بلغة عامية بدعوى تبسيط القضايا الدينية ، وفي تقديرنا فإن هذا التوجه أوجد جرأة غير معهودة لدى العام والخاص في تناول المسائل الدينية بلا دراية ولا كفاية من علوم دينية ومعرفة علمية وإحاطة لغوية ، ومعايشة واقعية ، الأمر الذي انجر عنه تعدد في الفتاوى وتضارب اتجاهاتها بطريقة لا تحتمل الاختلاف المحمود بقدر توسيعها للتشردم المذموم الذي يلقي بظلاله الوارفة على ممارسات المسلمين داخل البلاد الإسلامية وفي خارجها .

وبالنسبة للبرامج المستوردة ، نجد أن بعضها ييثر باللغة الفرنسية ، أو يترجم إلى الفصحى أو إلى العامية المشرقية عموما ، لأن هذه البرامج تستورد مدبلجة ، من بعض الدول العربية التي اتجهت في السنوات الأخيرة إلى استخدام العامية في عملية الدبلجة .

وربما ضاعفت الفضائيات من التششت الفكري ، في غياب إنتاج تلفزيوني وطني منسجم ، حيث ظل ما تقدمه التلفزة الجزائرية خليطا مستوردا يحتفظ كل عنصر منه بنوعيته وبجماهيره

1،

والأمر نفسه ينطبق على الإعلام المسموع ، خاصة مع انتشار الإعلام الإذاعي الجوّاري في ربوع الوطن ، بحيث أصبح لكل منطقة تقريبا (أو ما تعرف عندنا بالولايات وعددها 48 ولاية) إذاعة محلية خاصة بها ، وربما نجد أن توظيف العامية فيها أكثر حدة .

¹ محي الدين عيمور ، مرجع سابق ، ص 74

وقد نجد الاستثناء الوحيد الذي لم تنتقل إليه العدوى بعد بالشكل الملاحظ في الوسائل الأخرى هو الصحافة المكتوبة ، والتي لا تزال محافظة على اللغة العربية الفصحى ، مع استعمالات جد محدودة لبعض المفردات في الإعلانات وحتى في بعض المقالات ، ولكنها تبقى نادرة إلى حد الآن .

خامسا : مبررات الواقع اللغوي في الفضائيات الجزائرية :

كان يفترض بوسائل الإعلام عامة والفضائيات على وجه الخصوص أن تركز على نشر اللغة العربية بطريقة ميسرة ، وفي متناول كل الشرائح والفئات الاجتماعية ، لتسوق بها ومن خلالها نماذج عربية وإسلامية مستوحاة من تراثنا العربي والإسلامي ، في شكل برامج هادفة تعرف الناشئة ببصمات الرجال الذين مروا وتركوا من ورائهم الأثر مثل بان النفيس ، البيروني ، ابن سينا ، ابن رشد ، الخوارزمي ، الجاحظ ، الحريري وغيرهم ، بطريقة يمكنها الإسهام في جمع شتات التراث ونفض الغبار عن الأحجار الكريمة في موروثنا الحضاري ، ونقله بطريقة إبداعية ، تعليمية ، ترفيهية ، تنساب إلى أفئدة الأفراد بسلاسة وذكاء وإبداع ، فتعيد للعقول ثقتها بقدراتها وتستنهض الهمم ، وتضبط موجاتها على جوهر الرسالة ، وسر الوجود ، وتخلصه من براثن اليأس والإحساس بالهزيمة النفسية التي جعلته يتاكل ويضمحل ويتماهی في الآخر فكريا وسلوكيا وحضاريا .

لقد ضبطت القنوات الفضائية عندنا موجاتها على برامج يغلب عليها الترفيه ، ويطغى فيها استعمال العامية ، مع توظيف فصح لبعض المفردات الأجنبية ، وأحيانا يتم استحداث لغة هجينة تنبع من روافد لغوية متعددة ، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الإطار ماهي التبريرات التي تساق عادة لتسويغ هذه الوضعية؟

وفي تقديرنا هناك عدة اعتبارات يمكنها تفسير هذا الواقع ، ويمكن إيجازها فيمايلي :

أ - هناك اعتبار يتعلق بالسعي الحثيث للاقتراب من نبض الشارع ، لتحقيق مآرب معينة ، فليس خافيا من ناحية تجارية أن الفضائيات المختلفة في ظل التنافس المحموم بينها ، تسعى

لتحقيق الالتفاف الجماهيري حولها مما يسهم في زيادة إيراداتها من مداخل الإعلان ، الذي يشكل المورد الأساس في التمويل .

ومن الناحية السياسية تساهم هذه الوسائل في تنفيذ أجندات سياسية معينة لأطراف مختلفة جزاء وفاقا لما تتلقاه من دعم وتمويل.

ومن الناحية الثقافية فإن هذه الوسائل الإعلامية تعتبر قنوات للتسويق الثقافي بمفهومه الواسع الذي يستوعب كل الأفكار والسلوكيات التي تعكس الواقع الاجتماعي بكل أطيافه وتناقضاته.

ب - هناك الدافع لتبسيط المفاهيم والأفكار لتكون في متناول الفئات الأقل تعليما وثقافة ، والوصفة السحرية الجاهزة هو الحديث الإعلامي بالعامية في جل البرامج الفكرية ، والأكاديمية ، والدينية ، والترفيهية ، والفنية والرياضية وحتى الإخبارية منها . وهذا التبرير ليس له ما يؤكد في الواقع الميداني ، بحيث وجدنا الكثير من البرامج "أفلام ومسلسلات " مثل : "مسلسل الموت القادم إلى الشرق " ، "الجوارح " ، "الكواسر " ، " هارون الرشيد " ، "عمرو بن العاص " ، " عمر بن عبد العزيز " ... الخ شهدت رواجاً منقطع النظير ولدى جميع الفئات الشعبية ، ولم تكن اللغة العربية الفصحى عائقاً على الإطلاق في المتابعة والفهم ، بل وجدنا حتى المسلسلات والأفلام المستوردة من دول أمريكا الجنوبية كالبرازيل ، الأرجنتين وغيرها ، والتي تمت دبلجتها إلى اللغة العربية الفصحى لها من الجماهيرية ما يعجز اللسان عن وصفها ، فأنى لنا قبول هذه الحجج الواهية ، فليس مطلوباً من وسائل الاعلام أن تستعمل لغة راقية جداً تصعب على الفهم ، ولا أن توظف غريب الألفاظ بدعوى تحسين الكلام وتنميته بالمحسنات البديعية والأساليب البيانية ، بل إن الوسطية في هذا المجال هي الأمر المحبذ والمطلوب.

ج- هناك اعتبار يتعلق بالاتجاهات نحو اللغة العربية نفسها ، والتي تتأرجح بين فئات مختلفة : فهناك فئة الراضين لها والمطالبين بإحلال اللغة الأجنبية محلها بدعوى عدم أهليتها لاستيعاب علوم العصر. وهناك فئة الانهزاميين الذين يعيشون أزمة هوية وحالة من الاضطراب الفكري

والسلوكي ، نتيجة للمناخ العام الذي انبثق عن فترة التراجع الحضاري التي يعيشها العالم العربي والإسلامي ، مما جعل ثقته في لغة حضارتهم تتراجع ، وولعهم بلغات حضارات غيرهم تتسارع ، لذلك تجدهم يتطلعون للكمال الثقافي باللغات الأجنبية رغم البقية الباقية من إيمانهم بأهلية العربية ، فهم يعيشون حالة شعورية متناقضة بفعل ازدواجية الرؤية الفكرية والنفسية غير المستقرة ، وهناك فئة ثالثة مفعمة بحب العروبة والإسلام ، لاتزال متشبثة بلغة حضارتها العريقة قلبا وقالبا ، ولكنها أصبحت تعيش نوعا من الاغتراب في بيئة تشهد زحفا متسارعا للعامية في شتى الميادين .

د- وهناك اعتبار يتعلق بمدى امتلاك الإعلاميين للمهارة اللغوية بالعربية الفصحى ، لذلك يستبدلوها بالعامية إمعانا في ستر العجز اللغوي ، ولأدل على ذلك من كثرة الأخطاء اللغوية والنحوية التي تعج بها ألسنة الإعلاميين إذا ما اضطرتهم الوضعيات والمواقف التواصلية والإعلامية للحديث بالفصحى .

ما من شك في أن إتقان أي لغة لا يتأتى إلا بالتوظيف المستمر لها في شتى الميادين ، في قاعة الدرس ، في البيت ، في الشارع ، في المسجد ... الخ وفي كل مكان، وفي المقابل فان اندثار أي لغة كما يقول عالم اللغويات " تشارلز كيوفر " لا يكون إلا إذ تعمد أهلها تجاهلها والحديث بغيرها " إن موت اللغة يتحقق عندما يهتم المرء بأن يتحدث بلغة أخرى يجد أنها أكثر فائدة له اقتصاديا وفكريا ، وهو ما يدفعه أيضا لأن يحرص على أن يصبح إنسانا آخر ، وأن يجد فرصة عيش أفضل ، ومن هنا يكون من العبث الدفاع عن لغة وعن وضع اثني سوف يتحولان بمضي الوقت إلى (فلكلور) قديم الطراز "¹

تشكل اللغة أداة ناجعة لتوثيق عرى التواصل العميق والترابط الوثيق بين أفراد البلد الواحد ، مثلما كان الحال في الولايات المتحدة الأمريكية ، والتي تجمع خليطا متعدد الأعراق والاثنيات والأجناس ، ولكن صهرت كل هذا في بوتقة واحدة ، عمود سنامها اللغة الانجليزية .

لكن استخدام العامية في بعض البلاد العربية ، لا يشكل تهديدا للوحدة العربية والإسلامية فحسب ، وإنما هو معول هدم للترابط والانسجام بين أفراد البلد الواحد ، خاصة وأننا نجد في

¹ www.sadazaid.com/print.php?id=307

الجزائر تعددا للعاميات ، فكل منطقة عاميتها الخاصة ، وبالتالي فان التوظيف الإعلامي لهذه العامية ، يؤدي إلى إحداث شرخ لغوي ، وإحلال لعامية منطقة ما محل العربية الفصحى ، ومن ناحية أخرى يساهم في إذكاء فتيل النعرات بين مختلف المناطق في البلد الواحد على اعتبار أن عامية منطقة ما تفرض نفسها على عاميات المناطق الأخرى .

ولعل أخطر ما يهدد الهوية المجتمعية هو إلغاء التجانس (الاجتماعي ، السياسي ، الثقافي) بين أفراد المجتمع ، وهو الذي يشكل اللحمة التي تقوم عليها الدولة أو الأمة وهي التي تبنى بها الحضارة .

سادسا: خلفيات مشكلة الهوية الإعلامية في بعدها اللغوي

يمكن أن نستعرض معالم مشكلة الهوية في الإعلام الفضائي الجزائري في الجوانب التالية :

1- غياب مشروع إعلامي واضح المعالم

يمثل المشروع الإعلامي من الناحية النظرية البوصلة التي توضح للمؤسسة الإعلامية المسار الذي تسلكه وتوظف فيه كل طاقاتها خدمة لأهداف إستراتيجية بعيدة المدى .

إن ضبط هذه البوصلة الإعلامية يكمن في تحديد إجابات ثلاث : من نحن ؟ إلى أين نريد أن نصل ؟ كيف نحقق ذلك ؟

فالحالة التي نعاني منها اليوم إعلاميا هو نتيجة غياب هذا المشروع الإعلامي ، مما جعل القنوات الفضائية العربية والإسلامية تعيش حالة من التبعية والتقليد والمحاكاة والانحزامية ، وسيادة النزعة الاستهلاكية والتنازل عن الخصوصيات الثقافية ، والتماهي في الآخر ، واتخاذ نموذج يقتفى أثره شبرا بشبر وذراعا بذراع .

وهنا تشكل المسألة اللغوية قضية فرعية ضمن الإطار الكلي الذي يعبر عنه المشروع الإعلامي المتكامل الذي يجمع بين ثوابت الأصل ومقتضيات العصر .

إن عملية ضبط المسار تحتاج إلى جهود مخلصين في فتح هذا السجال إعلاميا ، بطريقة تشرك الخبراء والمختصين ، حتى نصل إلى أرضية مشتركة توضح المعالم الحقيقية ، وتكون هذه

الأرضية محل مراجعة مستمرة من قبل فرق مختصة ووفقا لآليات متفق عليها سلفا ، لأن النقاش المستمر والممنهج والجاد سيؤتي بشماره على المدى البعيد .

إن العقوبات التي تحول دون ذلك كثيرة، سيما وأن التراكمات التاريخية سوف تلقي بظلالها الوارفة على هذا الموضوع ، ولكن طريق الألف ميل في بدء خطوات.

2- اعتماد سياسة انتقائية للبرامج الإعلامية :

وهنا لا بد أن يعدل هذا الإعلام الفضائي عن فكرة "إذا لم تجد ما يث ، يمكن بث ما يوجد " فالإصرار على ملء أوقات البث على مدار الساعة بكل ماهو متاح ومتوفر في السوق يجعل الوسيلة الإعلامية لا تقيم وزنا للاعتبارات القيمة والأخلاقية ، ويغيب الإحساس بالمنوعات الثقافية عند المصدر وعند المتلقي ، خاصة في ظل التبعية وضعف الإنتاج الإعلامي المحلي.وهنا لا بد من الإشارة إلى أن السياسة الانتقائية لا بد أن تعتمد على معيار القيمة في المفاضلة بين المحتويات الإعلامية لأن "القيمة تتضمن المعنى ، والتقنية الفنية النوعية ، ذلك أن القيمة من دون منتجات إعلامية تبقى على مستوى المجرد الذي يصعب الارتقاء إليه في المجتمع الجماهيري الحالي ، والفنون غير المؤطرة بالقيمة أشبه بأشجار نخل خاوية"¹

3- الأخلاقيات الإعلامية

يمثل الجانب الأخلاقي العمود الفقري الذي تقوم عليه الممارسة الإعلامية ، وبدونه تستحيل العملية الإعلامية إلى دعاية مغرضة تهوي برجل الإعلام إلى أدنى دركات التردّي الإعلامي وما يكتنفها من أفول الضمير المهني وانعدام المسؤولية.

ولا ريب في أن الأبعاد الأخلاقية تتجاوزها أطر فلسفية وإيديولوجية مختلفة ، ولكن في سياق موروثنا الثقافي والحضاري نجد منظومة أخلاقية متكاملة لا يشوبها نقصان من بين يديها ولا من خلفها .

¹ محمد قيراط ، التبعية والتقليد وأزمة الهوية في الفضائيات العربية ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة باتنة ، العدد 1 ، ديسمبر

وتلعب الأخلاقيات الإعلامية دور الرقابة الذاتية على ممارسات الإعلاميين

4- ضبط ومراجعة العلاقة بين المؤسسة الإعلامية والمؤسسة السياسية

وهنا لا بد من توضيح طبيعة العلاقة التي تجمع المؤسسة السياسية الرسمية والمؤسسة الإعلامية ، وماهي انتظارات كل واحدة تجاه الأخرى ، هل المطلوب من المؤسسة الإعلامية أن تدور في فلك المؤسسة السياسية فتحافظ على الوضع القائم ، أم أن المطلوب هو إطلاق العنان للمؤسسة الإعلامية لتقوم بدور استيعاب كل الفئات الاجتماعية وإشراكها في عملية اتخاذ القرار في جو من التفكير الحر والحوار الموسع والمناخ الديمقراطي .

5- القيادة الإعلامية الراشدة

والمقصود بها هو اضطلاع المؤسسة الإعلامية بدور صقل أذواق و اهتمامات واحتياجات الجمهور بشكل واعى ، ممنهج ، مرحلي ، وعدم الانقياد لفكرة "الجمهور يفضل كذا" ، وهذا لا يعني محاولة بسط النفوذ والهيمنة الإعلامية على الجمهور ، بل أن الأمر على ارتباط بالمسؤولية الإعلامية التي تجعل رجل الإعلام يحرص على القيمة الإعلامية للمحتوى الذي يقدمه قبل المنفعة المادية التي يحصلها للمؤسسة ، وهنا تكون ممارسته الإعلامية على قدر من الأمانة والفعالية .

خاتمة

تحتل الهوية مكانة المركز في الفعل الثقافي ، وتنبؤ اللغة موقع المركز في دائرة الهوية ، ويشكل الإعلام المرآة التي تعبر عن الهوية الثقافية للمجتمع والأمة.

حاولنا في هذه المقالة أن نسلط الضوء على مظهر من مظاهر إشكالية الهوية في الإعلام الفضائي الجزائري ، والمتمثل في مكانة اللغة العربية الفصحى كبعد معبر عن الخصوصية الثقافية الجزائرية ، ووجدنا أن الإصابات الملاحظة تنصرف إلى نقطتين أساسيتين تحدد الهوية الإعلامية الجزائرية ببعديها العربي والإسلامي : يتمثل أولهما في زحف العامية لتحل محل الفصحى ، وثانيهما مزاحمة اللغات الأجنبية والفرنسية تحديدا للغة العربية في برامج مختلفة.

وبما أن وسائل الإعلام عامة والفضائيات منها على وجه الخصوص هي المرأة التي تعكس مختلف تفاعلاتنا الثقافية ، فانه من الضروري أن نرسم الطريق المناسب الذي يعبر عن خصوصياتنا الثقافية دون إفراط أو تفريط ، وهو مقصد بلا شك تقف دونه عقبات متعددة ، ولعل الحوار الهادئ والموضوعي كفيل بتحقيق هذا المبتغى. وخير ما نتوصى به في ختام هذه المقالة المعاني التي أوردها الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة حينما أشار إلى مكانة اللغة العربية والزامية الاعتناء بها وخدمتها:

لكم اللسان الفذ في ايضاحه رغما على الساعين في إبهامه

لا تهملوا هذا اللسان ففقدكم في فقدته ودوامكم بدوامه

فكأنما هو عقد در فائق رصفا وعلم النحو سلك نظامه